

الملتقى الوطني الثالث: "بين البلاغة العربية والتداولية"

جامعة 20 اوت 1955 سكيكدة جامعة سكيكدة

عنوان المداخلة: البلاغة بين الزائقة الفنية

أ.د/ رابح دوب

مقدمة:

ذهب الفلاسفة العرب القدماء إلى أنه لا توجد هناك فلسفة نتعلمها بل نتعلم كيف نطرح الأسئلة، وأنا أسقط هذه المقولة على البلاغة العربية التي درستها في الجامعة الجزائرية أكثر من ثلاثين سنة دون انقطاع فأقول دائما لطلابي في الأقسام: لا توجد هناك بلاغة نتعلمها بل نتعلم كيف نتذوق النصوص فالبلاغة في حقيقة الأمر هي جمال و ذوق فني لا عبارة عن قواعد و قوالب منظومة يمكن للطالب أن يحفظها عن ظهر قلب و من ثمة يصبح بليغا و إنما عليه بالقراءة و إنعام النظر في النصوص الأدبية من أجل اكتساب الملكة التي هي كفيلة بترقية الذوق الفني المرهف .

- مفهوم البلاغة: دون الدخول في اختلاف الدارسين في تعريف البلاغة لعل كتب التراث مفعمة بهذه التعاريف المتنوعة وبخاصية كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت 255 هـ) وغيرهما من الكتب التي تناولت قضايا البلاغة والفصاحة. فإن أفضل تعريف يمكننا الوقوف عنده واختياره، هو تعريف أبي هلال العسكري في كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر). حيث جاء في تعريفهما "هو أن تبليغ المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن" ص 4. نلاحظ أن هذا التعريف يكاد يكون جامعا مانعا كما قال أهل المنطق فمدار الأمر فيه على توصيل المعنى إلى الملتقي وتمكينه في نفسه واضحا دون غموض ولا لبس دون اضطراب ولا تشويش في صورة جمالية بديعة وهذا يقتضي من المتكلم حسن العناية في اختيار الألفاظ والعبارات التي يسهل على الملتقى استقبالتها وقبولها فنتترك الأثر الإيجابي في نفسه.

فالبلاغة إذن هي فن القول كما أطلق عليها أمين الخولي رحمه الله في كتابه المشهور (فن القول).

- تحول البلاغة العربية:

كانت البلاغة العربية منذ الملاحظات الأولى قبل عصر البعثة النبوية عبارة عن تذوق للنصوص وجعلها في متناول الملتقي مع مراعاة الحال والمقام. ويمكن أن نستدل على هذا بعبارة عامر العدواني وهو من أشهر خطباء العصر الجاهلي إذ قال: "البلاغة هي تحلية المعنى المميز وتطبيق المفصل قبل التحزيز" وهذا المفهوم للبلاغة متطور جدا لا يختلف عما وصلت إليه البلاغة اليوم عندنا فهي الجمال والوضوح وحسن الافهام مع مراعاة مقتضى الحال والمقام. وقد استمرت البلاغة العربية على هذا النمط حتى بلغت ذروة

ازدهارها على يد عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ). الذي أعطى للبلاغة العربية بعد آخر وبخاصية عندما تحدث عن النظم في كتابه "دلائل الاعجاز" فالبلاغة عنده هي النظم لا غير وقد أحدث انقلابا جذريا في مفهوم البلاغة. فإذا كان الدكتور حمادي حمود في كتاب الموسوم "التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع وقراءة) المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية 1981. قد قسم مراحل البلاغة العربية إلى ثلاث مراحل :

*مرحلة ما قبل الجاحظ والحدث الجاحظي

*مرحلة ما بعد الجاحظ. فأنا أقول بعد ظهور عبد القاهر الجرجاني فإن البلاغة يمكن أن تقسم إلى ثلاث مراحل لكنها مختلفة عن تقسيم الدكتور حمادي حمود وهي:

*مرحلة ما قبل الجرجاني، والحدث الجرجاني

* ومرحلة ما بعد الجرجاني. و الدليل على صحة هذا التقسيم في نظري أنه بعد مجيء عبد القاهر الجرجاني و بروز نظريته النظم، غطي تماما على تأثير الجاحظ، فكل من جاء بعد الجرجاني تأثر به حتى من المعتزلة أنفسهم و خير مثال على ذلك الإمام الزمخشري المعتزلي الذي طبق كل آراء عبد القاهر في النظم في تفسير الكشاف لذلك ذهب أستاذي الدكتور شوقي ضيف رحمه الله في كتاب "البلاغة تطور و تاريخ" إلى القول: بتطبيقات الزمخري على الكشاف. فكل ما فعله هو أنه طبق آراء عبد القاهر في نظرية النظم. ثم تبع الزمخشري الفخر الرازي في كتاب "نهاية الايجاز في دراية الاعجاز" و الذي كان عبارة عن تلخيص لكتابي عبد القاهر الجرجاني "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز". ثم تبعه بعد ذلك أبو يعقوب السكاني (ت 626هـ) في كتاب "مفتاح العلوم" الذي لخص آراء عبد القاهر الجرجاني بعدما استوعبها جيدا و كذلك خذا حذوهم كمال الدين بن خلفوا الأنصاري الزمكاني (ت651هـ) في كتابه "التبيان في علم البيان المطلع اعجاز القرآن" و هو عبارة عن شرح آراء عبد القاهر الجرجاني. فكل من جاء من بعده عول على كتابي عبد القاهر الجرجاني شرحا و تطبيقا و اختصارا و نظما في بعض الأحيان. فاختلف أثر الجاحظ تماما و لا يكاد يذكر بعد مرحلة الجرجاني لكن ما يلاحظ على هذه المرحلة أنها كانت مرحلة اختصار و تفعيد قواعد البلاغة العربية، عندما تحولت البلاغة العربية من الذائفة الفنية إلى الدقة العلمية، فغابت التحليلات الذوقية و كثرت الصنعة اللفظية، فتحولت البلاغة العربية من الذوق إلى القاعدة واستمر الأمر على هذا الحال حتى ظهر الشيخ محمد عبدو (1905هـ). فرجع بالبلاغة إلى نبعها الصافي الأول

أ.د رايح دوب